مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
www.jalhss.com ISSN:2414 – 3383
العدد (19) كانون الثاني - يناير 2018

سياسة الإمبراطور شارل الخامس تجاه أوربا (1516 -1558)

د.ماريا حسن مغتاظ التميمي
كلية التربية الأساسية – الجامعة المستنصرية
بغداد - العراق

الخلاصة

شهدت الدول الأوربية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر أوضاعاً غير مستقرة في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نظراً لما حصل من تحولات جذرية أثرت سلباً على العلاقات التي كانت تربط بين الدول الأوربية مما حذا بالمؤرخين وصف هذا القرن بـ(قرن التحولات)(1)، إذ نجد كل دولة تسعى لبناء كيانها السياسي والإقليمي على حساب الدولة المجاورة لها، فظهرت اسبانيا بوصفها قوة إمبراطورية لما تمتلكه من مؤهلات في النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية، فضلاً عن سيطرتها على معظم الأمريكتين (العالم الجديد). لذلك يُعد موضوع " سياسة الإمبراطور شارل الخامس تجاه أوربا (1516-1558) " من الموضوعات المهمة، كونه يمثل صفحة مهمة في تأريخ إسبانيا. فأرتقاء شارل الخامس العرش الاسباني في 20 شباط 1518، وعرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة في 28 حزيران 1519 يمثل مرحلة جديدة في التاريخ السياسي والاقتصادي في إسبانيا، لأن شارل الخامس من الشخصيات المهمة التي تركت اثراً واضحاً ليس في تأريخ إسبانيا فحسب بل في تاريخ العالم وليس أدل على ذلك من اطلاق تسمية العصر الذهبي على الحقبة الزمنية التي حكم فيها. يناقش البحث الإستراتيجية العسكرية للإمبراطور شارل الخامس ونفقات الحرب ، كما سلط الضوء على سياسته تجاه ايطاليا (الدور الثاني للحروب الإيطالية 1515-1559) ، والصراع ضد اللوثريين واندلاع حرب شمالكا لديك عام 1546، وتجدد الحرب مع فرنسا حتى وفاة الإمبراطور شارل الخامس عام 1558، وختاماً درس البحث معاهدة كاتوكمبرسيس التي كانت خاتمة حروب طاحنة بين فرنسا وإسبانيا.

Politics of Emperor Charles V towards Europe (1516- 1558)

ABSTRACT

During the first half of the sixteenth century, the European countries witnessed unstable situations in all political, economic and social aspects, in view of the radical transformations that had a negative effect on the relations between the European countries. Historians described this century as "the century of transformations" Every country seeks to build its political and regional entity at the expense of its neighboring state. Spain has emerged as an imperial power of its political, military and economic qualifications, as well as its control over most of the Americas (the New World). The subject of Emperor Charles V's policy towards Europe (1558-1516) is an important topic, as it represents an important chapter in the history of Spain. The rise of Charles V, the Spanish throne on February 20, 1518, and the throne of the Holy Roman Empire on 28June 1519marks a new stage in the political and economic history of Spain, because Charles V of the important figures left a clear impact not only in the history of Spain but in the history of the world. It is from the golden age label on the era in which it was ruled. The struggle against the Lutherans and the outbreak of the Shamalka war in 1546, and the renewal of the war with France until the death of Emperor Charles V in 1558, and the conclusion of the war against France, The research examined the Treaty of Cautocampresis, which was the culmination of bitter wars between France and Spain.

أولاً: الإستراتيجية العسكرية للإمبراطور شارل الخامس ومالية الحرب

كان القرن السادس عشر أعظم فترة في تاريخ الجيش الإسباني، فالأصلاحات العسكرية وإعادة التنظيم التي بدأ بها القائد كوردوبا Cordova أنتجت ثمرتها الناضجة في فترة اعتلاء شارل الخامس Charles V (1500-1558) (2) عرش إسبانيا والذي حصل على أهم فائدة من قدرته على بناء جيشه على اساس مبادئ الخدمة العسكرية الوطنية التي بدأت لأول مرة في قرار عام 1496، وبعد ذلك تم تطويرها من قبل المستشار الكاردينال فرانثيسكو خيمينيث Francisco Jimenez (1436-1517) في مبدأ الجندية (التطوع في الجيش) عام 1516. وفي الوقت نفسه بذلت كل الجهود من أجل احاطة مهنة العسكرية بهالة من المجد وجعلها تبدوا امتيازاً بدلاً من أن تكون عبأ ثقيلاً يجب تحمله أي المحافظة على الافكار المثالية (الاخلاق) التي كانت سائدة في العصور الوسطى، واتخاذ تنظيم حديث للعسكرية ولكن لسوء الحظ فأن هذا الهدف الاخير تمت البرهنة بأن من المستحيل تحقيقه على الأقل في المراتب المنخفضة في الجيش بأستثناء من الممكن القوات العسكرية التي تم ابقاءها في إسبانيا لمهمة الدفاع، لأن الجزء الأكبر من الحروب التي خاضها شارل الخامس اعتمد فيها على المرتزقة Mercenaries من ألمانيا وايطاليا (3) . أن مشكلة شارل الخامس تعقدت بشدة لأن اغلب القوات الالمانية والايطالية تم تجنيدها وتنظيمها في جيوشه بصورة منفصلة عن الإسبان وإبعدوا قدر الأمكان عن القوات الإسبانية التي يكرهوها، ولكن وجود هؤلاء الأجانب منح القوات الإمبراطورية صورة مؤكدة لحالة عدم التجانس في وفاته تلك الناحية حاول شارل الخامس التغلب عليها بكل جهوده ولكنه لم يستطع. ومع ذلك لايمكن الشك في أن الاتصال المستمر والوثيق مع جنود من مدن أخرى كان عنصراً فائق الأهمية في توسيع نظرة إسبانيا عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً. وبهذه النظرة الواسعة فأن تقاليد عزلة إسبانيا تحطمت بسرعة جداً (4).

أن التكتيك والإستراتيجية العسكرية لم يطرأ عليها تعديلات مهمة خلال فترة حكم شارل الخامس، بأستثناء تحسينات بارزة في فنون حفر الخنادق وبناء التحصينات التي استمر العمل فيها في عهد أبنه الملك فيليب الثاني Philip II (1556-1598)، ولكن حدث تغيير بارز في التنظيم العسكري مع ظهور ما يسمى باللغة الاسبانية (تيرثيو Tercio) وتعني الثلث في عام 1534، أطلق على الفرق العسكرية الجديدة للمشاة الإسبان Tercios لأن في بدايتها كانت تتألف من 3000 مقاتل وكل فرقة 12 كتيبة وكل سرية 250 مقاتل. ظهرت Tercios لأول مرة في إيطاليا حيث جاء اسمها من المنطقة التي كانت تلك القوات فيها مثلاً Tercios مدن لومباردي ونابولي في ايطاليا، ولكن لم يكن يسمح للأجانب (غير الإسبان) الدخول في هذه القوات الإسبانية في ايطاليا تحت أي ظروف، وهذه حقيقة تشير إلى كبرياء الإسبان واعتزازهم بأنفسهم (5).

أما في الشؤون البحرية شهدت فترة حكم شارل الخامس عدداً من التغييرات المهمة في مسألة بناء السفن في مقدمتها ضرورة حمل المدافع ومطالب متنوعة للملاحة عبر المحيط الاطلسي خدمت مادياً في زيادة حجم السفن. وان السفن الضخمة التي تحركها المجاذيف والتي فقدت اهميتها في القرن الخامس عشر أمام السفن الخفيفة أكثر عادت وأحتلت مكانتها البارزة وبُنيت بحجم اكبر من السابق، كما ظهرت سفن اضخم منها هدفها الأساسي رحلات بحرية إلى جزر الهند الغربية، وأن الشخصية البارزة في البحرية الاسبانية في ذلك الوقت هو البارودي باثان Bazan الذي شهرته في هذا المجال غطتها شهرة أبنه الذي كان أعظم منه في مجال البحرية واتخذ نفس أسم أبيه، وهو الذي تكهن بوضوح بأن سفن المستقبل سوف تعتمد على الاشرعة، وقام بصورة صحيحة بتقدير تأثيرات اكتشاف العالم الجديد (الأمريكتين)، وله الأثر البارز في التطور البحري لبلاده إسبانيا، ولكنه لم يكن الوحيد في هذا المجال فهناك مجموعة من بنائي السفن والمخترعين أبرزهم كاراي Garay الذي ارسل عام 1539 مذكرة إلى شارل الخامس اعطى فيها موجزاً لثمانية اختراعات بحرية مختلفة منها الاختراع الاكثر أهمية خطة لتحريك السفن عن طريق عجلات لها دواسات يضغط عليها الإنسان بقدمه، ويبدو أن هذه الطريقة تم تجربتها فعلياً. كما وجد أن في الطقس الهادئ فأن سفينة حمولتها 350 طن يمكن جعلها تقطع فرسخاً بحرياً في الساعة بهذه الطريقة، وأنها تستطيع قطع مسافة معينة بنصف الوقت الذي تستغرقه سفينة اعتيادية(6).

وهناك تطور رافق هذه الفترة ناتج أساساً من الأهمية المتزايدة لجزر الهند الغربية واعتماد شارل الخامس على القائد اندريا دوريا Andreal Doria (1466-1560) في الحرب البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وهذا التطور يقابله الانحطاط السريع للأهمية البحرية التي تمتعت بها برشلونة وبالينثيا والزيادة في أهمية المدن التي تقع على ساحل المحيط الاطلسي. كما توسعت الطاقات البحرية لموانيء اشبيلية Sevilla وقادس Cadiz وكانتابريا Cantabria واستورياس Asturias وغاليسيا Galicia، وزودت بالأساطيل لنقل الجيوش الإسبانية إلى الأراضي المنخفضة ومدن أخرى تابعة للإمبراطورية فبُعثت مجدداً المجد القديم لجميع مناطق البحرية الإسبانية فكان هذا تنبأ واحد من عدة تنبؤات للبدء بنقل مركز القوة الإمبراطورية الاسبانية من اراغون إلى قشتالة ومن البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي ومن العالم القديم إلى العالم الجديد (7).

يمكن القول أنه عند النظر إلى حروب شارل الخامس بالتسلسل يلاحظ نمطاً بأدلة جودة تخطيطه وتنفيذ لحملاته. وأن فن إدارة الحرب يضم جزئين، الأول: مراقبة تنفيذ الامكانيات الإستراتيجية لموقف معين كم عدد الرجال أو السفن ومن أي نوع يتطلبه الموقف، وبأي الطرق (المسارات) سوف تلتقي الوحدات العسكرية المختلفة، وما هي الغايات البديلة التي تتابعها هذه الوحدات بصورة مفيدة عندما تلتقي معاً. والثاني: مراقبة التحاق الوحدات ببعضها البعض وتشكيل خطط المعارك بضوء الامكانيات على الأرض، وإذا تطلب الأمر فأن شارل الخامس يظهر شخصياً من أجل دعم وتشجيع رجاله وأن اغلب حملاته أعطت مثالاً له كمدير أو راعي حرب بدرجة عالية. وهذا ساهم مساهمة كبيرة في ما اطلق عليه المؤرخون مصطلح (الثورة في مجال العسكرية) في هذه الفترة نتيجة للنمو المتزايد في حجم الجيوش والاسلحة فقد ازداد عدد المدافع، وأصبحت هناك حاجة ماسة لبناء التحصينات على أسس أكثر صلابة لكي تصمد امام قذائف المدافع (8) .

أما بالنسبة لمالية الحرب، فهذا السؤال يطرح نفسه: كم مقدار المال الذي ساهم فيه رعاياه الممالك المتنوعة لشارل الخامس في كلفة الحروب التي خاضها لاسيما من خلال العانات التي صادقت عليها هيئاتهم البرلمانية؟

أن تكاليف الحرب أزدادت زيادة مثيرة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر لعدة اسباب في مقدمتها الصراعات بين عائلتي هابسبورغ وفالوا Valois (فرنسا) التي كانت بمثابة ماكنة ضخمة تدفع إلى الامام وأقصد بهذا (الثورة في المجالس العسكري) كما وضحنا سابقاً، ازدياد عدد الجيوش والمدافع والتحصينات، وبما أن أكثر الجنود الذين كانوا يقاتلون في تلك الصراعات اكثرهم من المرتزقة أي غير عسكريين أو من وحدات عسكرية تابعة لجيش منظم فأن الرجال المقاتلين بصورة جيدة كانوا قادرين على المساومة فأرتفعت اجورهم بصورة اسرع من ارتفاع تكاليف المعيشة. مثلاً المرتزقة من جنوب ألمانيا الذين يقاتلون مع القوات الاسبانية Tercios الذين يشكلون دائماً العمود الفقري لقوة مشاة شارل الخامس كان يُدفع لهم ما يعادل 3.53 دوقية(*) شهرياً عام 1530 و5.47 دوقية عام 1552 أي زيادة 55% في فترة 22 سنة. ولهذا كلف الجيش الذي قاده شارل الخامس في مقاطعة البروفانس Provance جنوب فرنسا عام 1536 وبدون تحقيق أي انجاز 1500000 دوقية، كما كلفه الجيش الذي قاده ضد ميتز Metz شمال شرق فرنسا عام 1552 والذي لم يحقق أي شيء أيضاً تقريباً 3276000 دوقية (9).

كانت الحكومات الأوربية تدفع نفقات حروبها ليس نقداً بل بواسطة الائتمان Credit، فالحكومة توافق على الجور التي يفرضها الصيارفة كفائدة على انها تكاليف ضرورية للحرب وكذلك توافق على معدل تبادل العملة. وبكلمة أخرى فأن ايرادات الدولة دخلت الصورة ليس على انها المصدر المباشر للدفع إلى الجنود بل دخلت كمجموعة من التخصيصات التي اختارها الصيارفة في التفاوض على شروط تسديد قروضهم (10).

وإذا كان هناك شخص يركز على النتائج المباشرة للقرارات التي اتخذها شارل الخامس فأنه يجب ان يبعد تكاليف الحرب التي بصورة روتينية يتم ادخالها في الميزانية التقديرية لممالكه المتنوعة. لأن الحكومات الهابسبورغية في بروكسل وبلد الوليد ونابولي كان لها فقرات منتظمة من المال الذي يُصرف خلال الشهور

الباردة من السنة لدفع أجور قوات الحراسة والانفاق على تعزيز التحصينات أي بناء معاقل محصنة جداً على الطراز الجديد وباهضة التكاليف في نقاط اساسية معينة. وخلال الشهور الدافئة من السنة بمعنى موسم الحملات فأن نفس هذه الحكومات وجدت إيرادات للدفع منها إلى الجيوش لقمع الغزاة أو توجيه ضربة إلى بلاد الاعداء. ونستطيع وبصورة صحيحة ان نتكلم عن ميزانية حرب إمبراطورية فقط عندما قام شارل الخامس شخصياً بتحديد صراع معين له أهمية كافية لتبرير الدعم المالي من الممالك غير المتأثرة مباشرة بهذا الصراع (11). أن الحملات الاكثر تكاليف هي الحملات الإمبراطورية التي قرر فيها شارل الخامس بأن (الشرف والسمعة) يجعلانه يدخل في ميدان القتال شخصياً، وفي النهاية فأن هذا التمييز الأساسي بين الحروب الإمبراطورية والحروب الهابسبورغية الأخرى تم الاعتراف به في الحسابات المالية المعاصرة. وعلى جانب النفقات فأن شارل الخامس وافراد عائلته الذين كانوا اقرب اشخاص متعاونين معه كانوا دائماً يفهمون حتى اذا كان ذلك بعد بعض الخلافات من المسؤول عن دفع اجور القوات وكم طول الفترة التي يستمر فيها الدفع. مثلاً في عام 1530 عندما طُلِب من مارغريت النمساوية Margaret of Austria عمة شارل الخامس أرسال 10000 رجل مشاة الماني للالتحاق بشارل الخامس في ايطاليا فقد تم الاتفاق بأن ايرادات من الأراضي المنخفضة تدفع كضمان لقروض كافية لتمويل هذه القوة وتجهيزها. وفي عام 1546 أرسلت ماري الهنغارية Mary of Hungary (1505-1558) (12) أخت شارل الخامس قوات لتدعم حملة أخيها ضد البروتستانت الألمان فأنها حصلت على الاذن لغرض القروض التي تحتاجها في انتويرب Antwerp في الأراضي المنخفضة على أن تُسدَد من خزينة قشتالة (13).

نعود إلى السؤال الذي طرحناه في البداية وسوف نركز على الاعانات التي مُنحت لشارل الخامس من قبل الهيئات البرلمانية للمماليك الثلاثة قشتالة ونابولي والاراضي المنخفضة التي أُطلِق عليها اسم المقاطعات النواة (الفلاندرز وبرابانت وامستردام)، التي زودت حوالي 75% من الاعانات من جميع مقاطعات الأراضي المنخفضة(14). كانت الاعانات تشكل مشكلة سياسية كنوع من الإيرادات لأن لاتوجد منطقة اوربية يشعر رعاياها بالسعادة وهم يشاهدون اموالهم تنفق على حروب أجنبية يقوم بها أميرهم أو ينفقها بصورة غير حكيمة، والأسوأ من ذلك فأن تلك الاموال عندما يتم ألتماسها منهم يُبلغّون بصورة مباشرة بأنه تُنفق بهدف الدفاع عن وطنهم ضد هجوم اجنبي ولم يكن ذلك الهدف الحقيقي الذي يُعلن عنه لهم، بسبب تأثير الهيئات البرلمانية الذي يمكن ممارسته للسيطرة استعمال المنح المالية (15) . وقد حصل شارل الخامس على مبالغ كبيرة من اعانات مقاطعات الأراضي المنخفضة بهدف تغطية نفقات حروبه فضلاً عن تتويجه الإمبراطوري أو ما يسمى بـ (إعانة التتويج الإمبراطوري) 1529-1530 والتي انتجت حوالي 348000 كولدن Gulden (16).

خلاصة الأمر يبدو أن هناك تناقضاً شديداً بين رغبة قشتالة في دعم المغامرات الأجنبية للإمبراطور وتصميم المسؤولين في الأراضي المنخفضة على المحافظة على إيرادات البلاد من اجل الدفاع عنها، وهذا الاختلاف بينهما يعتمد اساساً على الموقف العسكري لكلا المملكتين. وعلى هذا الأساس يمكن تفسير سخاء (كرم) قشتالة وشحة (بخل) الأراضي المنخفضة بدلالات ضعف المؤسسات البرلمانية في إحدى المملكتين وقوتها في المملكة الأخرى. وفي الحقيقة فأن المجالس التمثيلية في المملكتين كانت قادرة على مساومة مطالب الحكومة المركزية بطريقة quid-pro-quo (تعبير لاتيني يعني إذا أعطيتك شيء يجب ان تعطيني ما يقابله) . ففي الأراضي المنخفضة فأن ماري الهنغارية وجدت طريقة لربط الائتمان المالي للمقاطعات بتكاليف حروب الحكومة المركزية وذلك بتحفيز ولايات المقاطعات لجمع المال عن طريق خلق دين يتم تمويله بواسطة الضرائب، كما حفز شارل الخامس مدن قشتالة على الائتمان لأتخاذ المسؤولية على الدين طويل الأجل لخزينة الدولة(17).

على الرغم من إيرادات كل الأقاليم التي يحكمها شارل الخامس لكن كانت تنقصه الموارد للقتال في الوقت نفسه ضد جميع الاعداء الذين يمكن ان يتحدوا ضده، وهذا يقودنا إلى السؤال: ما الذي جعل معظم الدول الأوربية تسارع في قبول مخاطر الحرب ضد الإمبراطور شارل الخامس بكل جيوشه وبالذهب الذي يمتلكه؟

إن فرنسا التي كانت محاطة بمنطقة فرانش كانتي Canpte Franche (18) الهابسبورغية من الشرق والأراضي المنخفضة الهابسبورغية من الشمال وإسبانيا من الجنوب، هي كذلك من اكبر الدول الأوربية واكثرها سكاناً ولهذا فأن العدو الطبيعي لفرنسا هو القوة الهابسبورغية. وأن نفس (الشرف والسمعة والمكانة المرموقة) التي ظهرت في التفكير الاستراتيجي لشارل الخامس قد جعل ملوك قالوا يتخذون التفكير نفسه لتوسيع موارد مملكتهم في سلسلة من الحملات العسكرية هدفها أضعاف القوة الهابسبورغية. ولكن فرنسا لم تستطع الصمود ضد هابسبورغ لوحدها، وأن الدبلوماسيين الفرنسيين وجدوا جمهوراً يستمع لهم وهم يطرحون الحجة القائلة بأن قوة هابسبورغ غير منسجمة مع الفكرة الجديدة التي تنص على أن يكون هناك توازناً نسبياً بين المصالح المتنافسة، وبصورة مؤثرة فأن مجرد امكانية قوة عظمى واحدة تهيمن على أوربا قد خلق احساساً بالمصلحة المشتركة بين الدول التي كانت في حرب ضد بعضها البعض (19).

ثانياً:سياسة الإمبراطور شارل الخامس تجاه إيطاليا (الدور الثاني للحروب الإيطالية 1515-1559)

إن اعتلاء شارل الخامس عرش الإمبراطورية الرومانية Maximilien I (1493-1519) في عام 1519، وما علق به من نزاع حول قضية دوقية بورغندي في شمال شرق فرنسا ، أثر أول حرب كبرى عرفتها العصور الحديثة في سبيل الهيمنة على الغرب الأوربي ونقصد بها الدور الثاني للحروب الايطالية الذي بدأ منذ عام 1515-1559 (20). علماً أن الدور الأول لهذه الحروب بدأ منذ عام 1494 عندما عبر شارل الثامن ملك فرنسا Charles VIII (1483-1494) جبال الالب (21) وأنحدر منها على رأس جيش كبير إلى ايطاليا، ثم تلت هذه الحملة عدة حملات وجهتها فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى شبه جزيرة ايطاليا. أما اسباب الحروب الايطالية فقد شجعت ظروف ايطاليا السياسية وثروتها الكبيرة ملك فرنسا على غزو ايطاليا، فوجد شارل الثامن الذرائع التاريخية لغزوها. فقد حكمت أسر (انجو) في نابولي ولم يكن فشلها وطردها من الأمور التي تجعل فرنسا تحجم عن المطالبة بتحقيق اطماعها ، كما كانت هناك صلة مصاهرة بين أسرة أورليان في فرنسا والاسرة الحاكمة في ميلان بسهل لمبارديا لذلك استجابت فرنسة لنداء لودفيكو Lodovcio حاكم ميلان عندما طلب منها المساعدة ضد فلورنسا (22).

ومع أن هذه الذرائع لاتبدو اسباباً حقيقية للحرب إلا أن فرنسا في الواقع كانت في ذلك الوقت قد أنهت حربها الطويلة ضد انجلترا بنجاح واستطاعت تحقيق وحدتها القومية، وعندما استقرت الأمور لأسرة فالوا في الداخل أخذت تتطلع إلى احراز الانتصارات في الخارج والسيطرة على المزيد من الممتلكات على حساب ايطاليا لاضعيفة التي لم تتوحد بعد، فقد كانت رغم تفوقها في ميادين الفنون والاداب تفتقر إلى القيادة السياسية الموحدة، كما لم تمتلك جيش قوي يدافع عنها وإنما كانت الجيوش المرتزقة تدافع عنها (23).

أما اسبانيا فكانت قد انتهت من نزاعها القومي والديني الطويل مع العرب وحققت قسطاً كبيراً من الوحدة وأصبحت ذات قوة عسكرية لايستهان بهما. وكانت ترى لنفسها في ايطاليا حقوقاً تفوق ما تدعيه فيها فرنسا، فقد كانت اراغون تسيطر على صقلية مما جعل إسبانيا تطالب بحقها في السيطرة على بقاع اخرى من ايطاليا. وأختلف موقف الدول الأوربية من الحروب الايطالية، فكانت انكلترا لاتزال تحتفظ منذ أيام حرب المائة عام (1337-1453) بثغر كاليه في فرنسا، وقد خشي ملكها هنري الثامن (1509-1547) ضياع كاليه إذا قويت فرنسا وتمكنت من اجلاء الانكليز عنها، ولذلك كان هدفه من التدخل في هذه الحروب زعامة سياسية تعقد لانكلترا بين الدول ، علي حين كانت أملاك ماكسيميليان الأول في اقليم البترول متاخمة لجمهورية البندقية لذلك كان يخشى أن تتأثر مصالحه بأي تغيير سياسي يحدث في شبه الجزيرة الإيطالية، كما كان يخشى تفوق نفوذ جمهورية البندقية أو تسلط دولة كبرى على شبه الجزيرة الايطالية (24).

أما سويسرا فقد وجدت في قيام الحروب الإيطالية مجالات للعمل أمام أبنائها للأنخراط جنوداً مرتزقة في الجيوش المتحاربة. ولم تقف الدويلات الإيطالية موقفاً سلبياً من هذه الحروب فقد انضمت بعضها إلى إسبانيا على حين انضم البعض الأخر إلى فرنسا، ثم تأرجح موقف البعض منها بين إسبانيا وفرنسا (25).

بدأ الدور الثاني من الحروب الإيطالية بأعتلاء فرنسوا الأول Francis I (1515-1547) عرش فرنسا وكان شاباً ميالاً إلى المغامرات الحربية، فأول ما فكر فيه أن يعاود الحرب في إيطاليا لاسيما بعد أن وجد بلاده محاطة بأملاك هابسبورغ فحاول التخلص من التطويق بتأليب الدول الصغرى على أقوى امبراطورية في أوربا. وقد فشل في الحصول على تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة فبعد وفاة الإمبراطور ماكسيميليان عام 1519 حدث تغير كبير في الموقف، فقد كان المتبع دائماً أن يكون الإمبراطور من أصل جرماني وكانت عملية انتخابه مقصورة على سبعة من حكام المقاطعات الالمانية التي كانت ذات أهمية سياسية وإستراتيجية لأنها تقع على الحدود بين فرنسا والمانيا الأمر الذي جعل هذه المقاطعات تؤدي دوراً مهماً في الازمات والحروب التي وقعت بين فرنسا والمانيا. وفي تلك الاثناء ظهر اتجاه جديد بأنه لايوجد أساس قانوني أو دستوري يحرم انتخابه من اية جنسية اخرى لذلك قرر فرنسوا الأول أن يتقدم لترشيح نفسه وكان منافسه شارل الخامس حفيد ماكسيميليان الأول وهو ينتمي إلى اسرة هابسبورغ والذي كان قد اعتلى عرش إسبانيا بأسم شارل الأول بعد وفاة فرديناند Ferdinand (1479-1516) ملك ارغون عام 1516، وتم التتويج بعد موافقة الممالك الإسبانية في 14 شباط 1518، وفرديناند الأول جده من جهة أمه خوانا المعتوهة، فأصبح يحكم شعباً قوياً ويمتلك ثروة طائلة. ومع ذلك فقد أقدم فرنسوا الأول على ترشيح نفسه لإدراكه بدقة موقف شارل بسبب الاعتقاد السائد في أوربا بأن التوازن الدولي قد يختل بأنتخاب شارل الأول ملك إسبانيا إمبراطوراً للدولة الكبرى في المانيا. وقد زج هنري الثامن ملك انكلترا بنفسه في معركة الانتخابات ولكنه آثر بعد قليل الانسحاب منها (26).

ومع أنه من الناحية النظرية كان تعيين الإمبراطور يتم بالأنتخاب إلا أن الإمبراطورية كانت وراثية من الناحية العملية فإذا ما تم انتخاب شارل الأول ملك إسبانيا لعرش الإمبراطورية فإنه يصبح تبعاً لذلك وريثاً لجميع ممتلكات اسرة هابسبورغ وحاملاً لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. بذل المتنافسان جهودهما المضنية في سبيل الفوز بهذا المنصب وأغدقا الأموال الطائلة، ولكن شارل كان اقوى واثرى المرشحين حيث كانت إسبانيا من أغنى دول أوربا واعظمها قوة براً وبحراً وقفزت بسبب عدد من الزيجات السياسية التي ربطتها بأعرق الأسر المالكة في أوربا إلى مصاف الدول الأوربية العظمى.

أجتمع المجلس الإمبراطوري أو (الدايت) في فرانكفورت في المانيا، وتم بالإجماع انتخاب شارل الأول إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1519. فأصبح شارل الخامس يحكم أكثر من نصف أوربا الغربية عدا الممتلكات الشاسعة في العالم الجديد وغدا قوة رهيبة تهدد فرنسا لأن املاك الإمبراطور أصبحت تحيط بفرنسا من كل جانب، فضلاً عن تنافسهما على أملاك بورغندي وميلانو التي كان لها اهمية كبيرة في نظر الإمبراطور إذ ان بقاءها وجنوة في داخل نطاق الإمبراطورية أمراً ضرورياً خوفاً من نجاح فرنسا في تحويل دوقية ميلانو إلى دولة فرنسية تمتد في سهل لمباردي والى خليج جنوة وتعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا وألمانيا. وإزاء ذلك فقد اشتدت المنافسة واستمرت العداوة بين فرنسوا الأول وشارل الخامس مما أدى إلى قيام الحرب بينهما (27).

على هذا الأساس أخذ فرنسوا الأول يبحث عن الوسائل التي يتمكن بواسطتها تبرير موقفه في اعلان الحرب على شارل الخامس، فقد طالب بعرش نابولي الذي تخلى عنه سلفه لويس الثاني عشر Louis XII (1498-1515) في عام 1504 لفرديناند ملك إسبانيا. كما ادعى فرنسوا الأول أن مملكة نافار مقاطعة فرنسية ألحق القسم الأكبر منها بأسبانيا بالقوة في عهد فرديناند وايزابيلا فيجب إعادتها إلى فرنسا، فضلاً عن أنه اراد الاستيلاء على الاراضي المنخفضة وكان شارل الخامس عقبة قوية في وجهه. واخيراً تذرع فرنسوا الأول بحقوق له موروثة في دوقية ميلانو ولم يجد له حليفاً سوى جمهورية البندقية، فبعد أن خسر لويس الثاني عشر

ميلانو عام 1512 قرر فرنسوا الأول إستعادتها فأقدم على تنفيذ هدفه واخترق جبال الالب ثم انقض على اعدائه في مارينيانو Marignano بالقرب من ميلانو عام 1515، وكان يدافع عنها جنود مرتزقة سويسريين إلا أنه سحقهم في تلك المعركة التي اسفرت عن عدة نتائج مهمة، إذ عقد فرنسوا الأول معاهدة مع سويسرا عام 1516 فرض عليها أن تتعهد بأن لاتسمح لقواتها بأن تشترك ضده في اية حرب قادمة، وقد دفع الملك النفقات التي تكبدها الجنود السويسريون في هذه الحرب (28).

ووقع اتفاق بولونيا مع البابا ليو العاشر Leo X (1513-1521) والذي ينص على ان يكون تعيين رجال الدين في الكنائس الفرنسية من حق ملك فرنسا. وبذلك آمن الملك سيطرته على كنيسة بلاده وعلى موظفيها الدينيين الذين كان من حق البابا وحده تعيينهم وهو مبدأ مهم في سبيل تدعيم سلطان الملك ونفوذه. وهكذا تحددت العلاقة بين فرنسا والبابوية إلى نهاية القرن الثامن عشر. كما عقد فرنسوا الأول معاهدات مع الإمبراطور ماكسيميليان الأول والبندقية في آب 1516 كفلت له الاحتفاظ بميلانو وجنوده، وأصبحت له سيطرة تامة في اقليم لمباردي في شمالي ايطاليا. وفي 13 آب 1516 عقد معاهدة نويون Noyon مع شارل الخامس الذي جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية وأن يكون الصداق الجزء الخاص من نابولي الذي يدّعيه لنفسه فرنسوا الأول، لكن الموقف السياسي تغير بوفاة الإمبراطور ماكسيمليان الأول كما ذكرنا سابقاً (29).

أما سياسة شارل الخامس فكانت مبنية على الحقوق التقليدية كأحترام الحقوق الاقطاعية، فقد نصحه مستشاروه البرغنديين أن دوقية بورغندي التي تربى فيها شارل ليست جزءاً من فرنسا اصلاً، كما أن دوقية ميلانو حق أقطاعي للإمبراطورية الرومانية المقدسة وبقائها تحت سيطرة فرنسا تقطع طريق المواصلات بين النمسا والبحر الأبيض المتوسط. وكان شارل الخامس يعتقد أنه من واجبه إعادة السلام إلى أوربا بأستخدام القوة اذا كان ذلك ضرورياً، على الرغم من اختلاف وضع الملكان فقد كان فرنسوا الأول يمتاز بأنه يحكم مملكة متحدة الجنس واللغة والدين ولها جيش ثابت ومالية منتظمة، أما شارل الخامس فكان يحكم إمبراطورية مترامية الاطراف تختلف اقاليمها المتعددة في الجنس واللغة والمذهب الديني والعادات والتقاليد إلا أن موارد ثروته وجيوشه كانت أوسع واكثر. وعلى حين نجح شارل الخامس في ضم ملك إنجلترا إلى جانبه فقد فشل فرنسوا الأول في أن يضمه إلى صفه، كما أن ادريان السادس الذي تولى كرسي البابوية عام 1522 حتى وفاته عام 1523 لم يتردد في الانضمام إلى جانب الإمبراطور الذي كانت بينهما صلات قوية جداً (30).

بدأت العمليات الحربية بين الطرفين عام 1521 بعد أن فشلت الجهود الهادفة إلى الصلح بين شارل الخامس وفرنسوا الأول بعد إجتماعهما في كينيس Guines شمال فرنسا في حزيران 1520. ففي تشرين الأول 1521 هاجم فرنسوا الأول لوكسمبرك في الاراضي المنخفضة شمال فرنسا ثم انتهز فرصة نشوب تمرد الكومونيرو Comuneros في إسبانيا وأستولى على بامبيلونا Pampeluna شمال اسبانيا بعد حصار فرضه عليها والتي كانت مقاومتها تاريخية ضد القوات الفرنسية بقيادة ليسبير L'Esparre (31). وفي تلك الاثناء قررت الملكية الإسبانية تحشيد جميع قواتها ضد تمرد الكومونيرو بدلاً من تخصيص جزءاً من تلك القوات لمواجهة الفرنسيين، فأثار ذلك مشاعر وطنية متأججة في مختلف انحاء اسبانيا بحيث اتحدت ارغون مع قشتالة في اتخاذ إجراءات الدفاع. فتمكنت الخيالة القشتالية من حسم المعركة لصالحها والاستيلاء على المدفعية الفرنسية ووقع القائد ليسبير مع عدد كبير من قواته في الأسر الإسباني. وبعد هذا النصر الساحق استعاد الجيش الاسباني نافار الجنوبية، وارسلت فرنسا قواتها بقيادة بونيفيه لكنه لم يحقق شيء بأستثناء استيلاءه على مدينة فوينترابيا Fuentarrabia في شمال شرق إسبانيا والتي ظلت تحت السيطرة الفرنسية لمدة ثلاث سنوات تقريبا (32).

وفي اثناء ذلك حصل شارل الخامس على مساعدة البابا ليو العاشر في ايطاليا لتشكيل جيش تعداده 20000 رجل بقيادة كولونا Colonna وتم طرد الفرنسيين من ميلانو . أن التطلعات المستقبلية لشارل الخامس تحسنت أكثر بعد ان تولى معلمه الخاص الوصي ادريان كرسي البابوية بأسم ادريان السادس عام 1522 كما ذكرنا سابقاً، وهذه التطلعات اصبحت أكثر اشراقاً عندما تعرضت الحملة الفرنسية إلى هزيمة ساحقة في بيكوكا Bicocca

شمال ايطاليا في 22 نيسان 1522 . ولكن رغم كل هذه الفرص السانحة لشارل الخامس بدأ بندول الساعة يعود لصالح فرنسا بعد فشل حملة هنري الثامن ملك انكلترا على بيكاردي Picardy في شمال فرنسا، فضلاً عن هزيمة شارل الخامس في نافار بسبب انتشار الاوبئة بين صفوف قواته فعاد إلى إسبانيا ولم يسجل أي نجاح حقيقي له بأستثناء استعادة مدينة فوينتارابيا في 24 آذار 1524. شجعت هذه الاحداث الفرنسيين لإرسال قوة بهدف إستعادة ميلانو إلا أنهم خسروا أمام قوات شارل الخامس تحت قيادة الكونستابل شارل دوق بوربون وهو من حكام المقاطعات الفرنسية الذي أنحاز إلى جانب شارل الخامس ضد عائلة فالوا. ولم يكن دوق بوربون مقتنعاً بهذا النجاح الذي حققه لذلك اتخذ قراراً سيئاً وهو غزو مقاطعة بروفينس Provence الفرنسية فقد واجه مقاومة عنيفة من سكان ميناء مرسيليا Marseilles (33)، وفي النهاية أضطره الجوع والمرض لرفع الحصار الذي فرضه وتقهقر إلى ميلانو في 29 ايلول 1524. وللمرة الثانية يبدو أن الحظ خذل شارل الخامس فقد كان بحاجة ماسة للمال، وكانت جيوشه في ايطاليا تتضور جوعاً وبعضها تمرد أو أضعفه المرض، وأصبح الامر يبدو وكأن الفرنسيين استعادوا الحظ وسينجحون في استرجاع ميلانو بدون معركة (34).

ففي تشرين الأول 1524 قاد فرنسوا الأول جيشه عبر جبال الالب فأصطدم بقوات شارل الخامس بقيادة انتونيو دي ليبيا Leyva البالغ عددها 5600 مقاتل من المرتزقة والإسبان، وقد تقهقر ليبيا بقواته إلى مدينة بافيا Pavia جنوب غرب مقاطعة لومباردي في شمال ايطاليا وكانت محصنة تحصيناً قوياً فتعرض إلى هجوم فرنسي في 28 تشرين الأول 1524 إلا أنه فشل، ففرض فرنسوا الأول الحصار على بافيا لكي تضطر إلى الاستسلام وأستمر الحصار لمدة شهرين كانون الأول وكانون الثاني 1525. وقد بلغ عدد القوات الفرنسية 30000 مقاتل، وعلى الرغم من قوة حراسة بافيا وموارد القائد ليبيا فأنها خضعت إلى ظروف قاهرة شديدة. وفي غضون ذلك تجمع الجيش الإمبراطوري في منطقة لودي Lodi في مقاطعة لومباردي بقيادة ثلاثية دوق بوربون وبيسكارا Pescara ولانوي Lannoy الذي قرروا في 30 كانون الثاني 1525 القيام بمحاولة لأغاثة بافيا رغم التفوق الفرنسي من ناحية العدد، ولمواجهة هذا التهديد فصل فرنسوا الأول جزءاً من قواته وارسلها بأتجاه نابولي متوقعاً وبشكل خاطيء بأن العدو سيتحرك نحو نابولي.وبعد ذلك قرر مواصلة حصار بافيا بدلاً من التقهقر نحو الشمال الغربي بهدف جعل الجيش الإمبراطوري (الذي لم يتم الدفع لقواته) أن ينقسم على نفسه أو يقاتل في ظروف مفضلة جداً لفرنسوا الأول، فكانت نتيجة القرار الذي اتخذه هو ان اصبح جيشه محاصراً بين الجيش الإمبراطوري من جانب وقوة حرس بافيا من جانب آخر. وتمكن القائد ليبيا وبحركة ذكية من تزويد قوة حراسة بافيا بالتجهيزات التي تحتاجها واتصل بالجيش الإمبراطوري الذي جاء لأغاثة المدينة، وفي 24-25 شباط 1525 اخترق الجيش الإمبراطوري اسوار متنزه ميرابيللو Park of Mirabello خارج مدينة بافيا وهو مفتاح الموقف الفرنسي ، ومع بزوغ الفجر تمكنت القوات الاسبانية في الجيش الإمبراطوري التي كانت تقاتل بحماس متأجج بالتعاون مع قوة حرس بافيا من هزيمة الجيش الفرنسي (35)، وقام فرنسوا الأول شخصياً بتسليم سيفه إلى القائد لانوي ووضع في برج سجن مدريد ثم أفتتحت مفاوضات السلام بين الجانبين. ولم تكن في نية شارل الخامس الضغط على فرنسوا الأول الأسير للحصول على فوائد لاداعي لها لأن شارل الخامس كان متلهفاً لتحقيق السلام الدائمي مع فرنسا من اجل تحرير نفسه للقضاء على التهديد التركي والمشكلة اللوثرية في المانيا، وفضلاً عن ذلك شعر شارل الخامس بالخوف من احتمال وفاة فرنسوا الأول الذي ضعفت صحته بسبب الاحوال السيئة للاعتقال لذلك كان شارل الخامس معتدلاً في مطالبه، ومع ذلك وبوجود جميع هذه النوايا الطيبة التي يحملها فأنها كانت مطالب كبيرة من المستحيل تنفيذها. في مقدمتها إستعادة دوقية بورغندي بجميع اراضيها ورفض المطالب الفرنسية بميلانو ونابولي، ومكافئة دوق بوربون مقابل خيانته بأرجاع له جميع ممتلكاته وأراضيه إضافة إلى نقل ملكية مقاطعة بروفانس Provence من سيادة ملك فرنسا كمملكة مستقلة لدوق بوربون وعائلته (36).

وفي النهاية فأن هنري الثامن ملك انكلترا يجب أن يحصل على كل ممتلكات Plantagent التي كانت لانكلترا في فرنسا خلال العصور الوسطى. وفي خريف 1525 بذل الدبلوماسيون الفرنسيين كل جهودهم ضد هذه الشروط المستحيلة وبالتدريج بدأ شارل الخامس يتنازل عن الكثير من النقاط بأستثناء دوقية بورغندي لأنه كان مقتنعاً بأنها ميراث عائلته، وقد أصرَّ على مطالبته بغض النظر عن الحد الفرنسي الذي ينتج من التنازل عنها. واخيراً وافق فرنسوا الأول على هذا الشرط (رغم ان تنازله كان ظاهرياً مثلما سوف تثبت الاحداث مستقبلاً) وبهذا وقعت معاهدة مدريد في 14 كانون الثاني 1526، وكان للملكة لويزا سافوي والدة فرنسو الأول دوراً اسياسياً في عقدها. وقد نصت بنودها على تنازل فرنسوا الأول عن دوقية بورغندي وعن كل ادعاءاته في ميلانو ونابولي وجنوة فضلاً عن الفلاندرز وارتوا وتورناي في الأراضي المنخفضة، ويتعهد بعدم مساعدة حاكم نافار، ويسترد دوق بوربون الأراضي التي صادرها منه ملك فرنسا، ويقدم فرنسوا الأول ولديه وهما ولي عهده والابن الثاني هنري (الذي تولى عرش فرنسا فيما بعد بأسم هنري الثاني) كي يقيما في إسبانيا كرهينة أو كضمان لتنفيذ احكام المعاهدة، وقد قضيا أربع سنوات كرهينة في إسبانيا ويتزوج فرنسو الأول (الأرمل) من إلينور Eleanor شقيقة شارل الخامس (أرملة ايمانويل الأول Manuel I ملك البرتغال (1469-1521)) (37).

وافق فرنسوا الأول على معاهدة مدريد مقابل اطلاق سراحه بعد أن ذاق مرارة السجن وشدة المرض وفشل محاولة الهروب على أمل أن يكون له موقف آخر حين يعود إلى وطنه ويسترد حريته، فأطلق سراحه في 17 شباط 1526 وبموجب هذه المعاهدة خسرت فرنسا اجزاءاً كبيرة من حدودها (38).

ثالثاً: حلف كونياك Cognac المقدس 1526 واتفاق سلام كامبري Cambrai 1529

آثار انتصار شارل الخامس حنق الدول الأخرى عليه لأنها تخشى قوته فكان لابد من وضع حد لسيطرته وخطره وذلك بتكوين الحلف المقدس ضده، ضم هذا الحلف البابا كليمنت السابع Clement VII (1523-1534) والبندقية وفلورنسا وأسرة سفورزا في ميلانو وسائر الإمارات الايطالية الأخرى، ومع أن هنري الثامن ملك انكلترا لم ينضم رسمياً إلى الحلف إلا أنه كان يؤيده بسبب رغبته بطلاق زوجته كاترين الارغوانية (خالة) شارل الخامس وعقد حلف مع فرنسا. مما دفع فرنسا إلى الاقدام على نقض معاهدة مدريد بحجة أن توقيعها لم يكن شرعياً بحيث أن الملك وقعها تحت الضغط أو الاجبار عندما كان اسيراً في إسبانيا، كما أنه ليس من سلطة ملك فرنسا التنازل عن أقاليم فرنسية بدون موافقة مجلس طبقات الأمة. وبذلك تحرج موقف الإمبراطور شارل الخامس ولاسيما في ايطاليا بعد الاطاحة بمبدأ التوازن الدولي في أوربا وإعادة حلفائه النظر في موقفهم منه، هذا فضلاً عن عجزه عن دفع مرتبات جنوده وفقدان اثنين من اعظم قادته ونجاح العثمانيون في التقدم نحو البحر. وهكذا على الرغم من الحذر والاحتراز الشديد لضمان الالتزام بمعاهدة مدريد إلا أن فرنسوا الأول بعد اطلاق سراحه وعبوره نهر بيداسو Bidassoa(*) بكل أمان لم يحافظ على كلمته ووجد الموقف الدولي يقف لصالحه بشدة، تألف الحلف المقدس في مدينة كونياك جنوب غرب فرنسا في 22 أيار 1526 وكان البابا فخوراً بتكوين هذا الحلف بل إنه نسب لنفسه الفضل في تكوينه لذلك يطلق عليه حلف كونياك المقدس (39) .

شعر شارل الخامس بغضب شديد وسارع في جلب تعزيزات من ألمانيا وإسبانيا وارسلها إلى ايطاليا، وتجمعت هذه القوات في بياجينتسا Piacenza شمال ايطاليا تحت قيادة الكونستابل شارل دوق بوربون وفروند سيرك. وفي عام 1527 استمال شارل الخامس أسرة كولونا الايطالية القوية وأذن لها في استخدام الأراضي التابعة لمملكة نابولي للهجوم على الممتلكات البابوية وبعد هجومهم وحدوث خسائر جسيمة اضطر البابا إلى عقد هدنة مع شارل الخامس في نيسان 1527 وقد ادى تأخر رواتب الجنود إلى قيامهم بحركة عصيان والقيام بأعمال السلب والنهب تعويضاً لرواتبهم المتأخرة، ولم فشلوا في فلورنسا اتجهوا إلى روما المدينة المقدسة The Holy city في ايار 1527 وانضم إلى هذه القوات الجرمان الأجراء والغوغاء من الايطاليين. وقامت القوات الإمبراطورية بقيادة دوق بوربون بأسر البابا كليمنت السابع، وقد تسببت هذه الاحداث في نهب روما وقتل الآلاف من سكانها وارتكاب الاعمال الوحشية مع الراهبات والرهبان (40).

أن شارل الخامس رغم أنه لم يكن مسؤولاً شخصياً عن هذه الجريمة الشنيعة فأنه لم يكن متأسفاً كلياً عندما شاهد البابا الذي خذله في قضيته أسيراً في قلعة القديس انخيلو. لكن نهب روما آثار المشاعر الدينية للإسبان رغم محاولة شارل الخامس للمحافظة على سرية الاخبار لكن في النهاية تم كشفها لذلك تبرأ شارل الخامس عن أي قصد في توجيه السلاح ضد روما، ولكي يبرهن ذلك قام بإلغاء جميع المهرجانات التي كان يفترض إقامتها بمناسبة ولادة ابنه فيليب الثاني (41).

أن تأخر رواتب القوات ونقص السفن شلّت حركة الجيش الإمبراطوري ونتيجة لذلك تمكن الجيش الفرنسي قيادة لوتريك Lautrec عام 1528 من غزو ميلانو وجنوا والتحرك نحو الجنوب لمحاصرة نابولي براً وبحراً. لكن شارل الخامس حقق نجاحاً لامعاً عندما استطاع اقناع الأدميرال اندريا دوريا للتخلي عن الفرنسيين والوقوف إلى جانبه مع جمهوريته واسطوله العظيم، أن هذا التحول في ولاء اندريا دوريا غيّر مجرى التاريخ فمنذ تلك اللحظة أصبحت جنوا الحليفة الدائمية لإسبانيا، وان الفائدة المباشرة لهذا الحلف مع جنوا هو انتقال قيادة البحر من يد فرنسا إلى الاسبان. وكانت النتيجة رفع الحصار عن نابولي وأصبح بالأمكان نقل القوات الإسبانية إلى ايطاليا، كما أن انتشار وباء الطاعون بين صفوف القوات الفرنسية ادى إلى وفاة اعداد كبيرة من بينهم القائد لوتريك فأضطر الفرنسيون إلى الانسحاب واستعاد الإمبراطور نابولي وميلانو . وفي 21 حزيران 1529 حاول الجيش الفرنسي بقيادة سانت بول غزو ميلانو إلا أنه هَزم امام القائد ليبيا في مدينة لاندريانو جنوب غرب ميلانو، لقد اطلق الفرنسيون الرصاصة الأخيرة وهكذا انهار حلف كونياك المقدس وعُقد اتفاق سلام مع البابا بموجب معاهدة برشلونة في 29 حزيران 1529 وبمقتضاها أعاد شارل الخامس للبابا كليمنت السابع جميع الولايات البابوية، كما اعادة أسرة آل مديَشي للحكم في فلورنسا (42).

ورغم ما أحرزه شارل الخامس من انتصارات على فرنسا إلا أن تطور الاحداث وقيام حركة الاصلاح الديني أضعفت قدرته على الاستمرار، وفي الوقت نفسه كان فرنسوا الأول يتصل بالبروتستانت الألمان لمساعدتهم وإثارتهم ضد عدوه شارل رغم أن فرنسوا كان كاثوليكياً متعصباً (43).

ولما كان فرنسوا الأول على وشك الانهيار بعد الهزائم التي منيت بها فرنسا فقد خشي الدخول في معركة حاسمة فضلاً عن خوفه على ولديه الموجودين في إسبانيا كرهينة، كما انشغل شارل الخامس بمجابهة حركة الاصلاح الديني في ألمانيا، بالإضافة إلى الهجوم العسكري العثماني بقيادة السلطان سليمان القانوني (1520-1566) للزحف على فينا عام 1529 وتم محاصرتها ثلاثة اسابيع ولكن القوات العثمانية لم تتمكن من فتحها بسبب استبسال حامية العاصمة في الدفاع عنها، وبذلك توفرت كل الظروف لعقد صلح كامبري في 3 آب 1529 ، ويطلق البعض على هذا الصلح " سلم السيدات " لأن الملكة الوالدة لويزا هي التي أدارت المفاوضات عن الجانب الفرنسي، وأدارت مارغريت النمساوية عمة شارل الخامس وحاكمة الأراضي المنخفضة المفاوضات عن الجانب الإمبراطوري. وبموجب هذا الصلح تخلى شارل الخامس عن مطالبه في بورغندي واستعاد فرنسوا الأول بعض ما فقده بموجب معاهدة مدريد ولكنه تنازل نهائياً عن كل ما يدعيه من حقوق في ميلانو ونابولي وارتوا والفلاندرز، وأن تكف فرنسا عن التفكير في أي محاولة لأسترداد مدينتي ليل ودوويه، وإطلاق سراح الأميرين الفرنسيين مقابل مبلغ 2 مليون كراون، ويتزوج فرنسوا الأول من إلينور شقيقة شارل الخامس. ولضمان تنفيذ ذلك فانه لم يتم إطلاق سراح الأميرين الا بعد وصول الدية داخل الحدود الإسبانية، كما تم الزواج بين الملك وإلينور. وبذلك انتقلت السيادة على شبه الجزيرة الايطالية إلى شارل الخامس واستولى على نابولي، واستعاد سفورزا ميلانو كتابع للإمبراطور، وأصبحت جنوة تحت حمايته والبابا حليفه التابع له فاصبح الطريق معبد امام شارل الخامس للعبور إلى ايطاليا لأستلام التاج الامبراطوري من البابا فتم التتويج في وسط احتفالات في كنيسة سان بيترونيو في مدينة بولونيا Bologna الايطالية في 22-24 شباط 1530 ؛ وكان شارل الخامس آخر إمبراطور في تاريخ أوربا يتوج على يد البابا (44).

رابعاً: الحرب الثانية ضد فرنسا وهدنة نيس 1538 Nice

بدأت في عام 1530 مرحلة جديدة من الحرب ، ففي 30 آذار أتجه شارل الخامس إلى ألمانيا للقضاء على البروتستانت الخارجين على الكاثوليكية وظل فيها حتى عام 1532 حيث انشغل بالمشاكل الداخلية والخارجية وكان اخطرها وصول الأتراك العثمانيين إلى الأراضي المجرية واحتلال معظمها واستعدادهم بعد ذلك لمهاجمة فينا (45)؛ ومن ثم اضطر إلى مهادنة البروتستانت وعقد معهم اتفاق نورمبرغ عام 1532 ليتفرغ للخطر الخارجي حيث قاد جيشاً كبيراً أستطاع به طرد الأتراك. ومن المشاكل التي واجهت الإمبراطور أيضاً إغارات سكان شمال افريقيا على شواطئ اسبانيا ونابولي بقيادة خير الدين بربروسا، وقد تمكن شارل الخامس من القضاء عليهم ثم توجه بعد ذلك إلى ايطاليا لمقابلة البابا كليمنت السابع وعقد معاهدات دفاعية مع معظم الولايات الايطالية ما عدا البندقية، ثم غادرها إلى اسبانيا في ربيع 1533 .

تطلع فرنسوا الأول إلى الانتقام من الإمبراطور وعدم التقيد بصلح كامبري لذلك تحالف مع البروتستانت في ألمانيا وتعاهد مع السلطان سليمان القانوني، وأنهى مشاكله مع هنري الثامن ملك انكلترا وجيمس الخامس ملك اسكتلندا. ورغم أن الحكومة الفرنسية كانت تضطهد البروتستانت في فرنسا ذاتها إلا أنها وجدت من مصلحتها أن تتصل بالبروتستانت في ألمانيا وتساعدهم ضد شارل الخامس، كما اتصل فرنسوا الأول بالبابا الذي كان يميل له ويرغب في إعادة ميلانو وجنوه للتاج الفرنسي. إلا أن وفاة البابا كلمنت السابع عام 1534 وانتخاب بول الثالث (1534-1549) حرم فرنسوا الأول من وعد البابا السابق وتحسن بذلك موقف الإمبراطور.

استمر صلح كامبري نافذ المفعول لمدة سبع سنوات فكان اقرب ما يكون لهدنة مؤقتة، ثم تجدد الصراع مرة أخرى بين ملك فرنسا والإمبراطور، فملك فرنسا لم يقبل أن يتنازل عن كل ادعاءاته في ايطاليا بل أنه عقد قران ابنه الأمير هنري على كاترين دي مدتشي الايطالية والتي كانت لها أطماع سياسية بعيدة. ولما كانت هذه الزيجة من شأنها أن تؤدي إلى تدعيم النفوذ الفرنسي في إيطاليا ولاسيما أن العروس من أسرة الباب كليمنت السابع فقد اعتبرت بمثابة ضربة سياسية موجهة ضد شارل الخامس في ايطاليا . وقد تأزم الموقف بعد انتقال ولاية العهد إلى الأمير هنري عام 1536 على أثر وفاة اخيه الأكبر وولي العهد. وبعد وفاة سفورزا دوق ميلانو في كانون الثاني 1535 طالب فرنسوا الأول بدوقية ميلانو لزوجة ابنه كاترين دي مدتشي على حين كان شارل الخامس مصمماً على ابعاد النفوذ الفرنسي من شبه الجزيرة الايطالية. وفي عام 1536 أستؤنف الصراع بين الطرفين حينما أصبح عرش ميلانو فارغاً وتجددت ادعاءات الهابسبورغ والفالوا عليه، فعاود فرنسوا الأول القتال واحتل سافوي وتورين وبيدمونت، ولكن هذه الحرب لم تأخذ طابع الشدة والضراوة التي لازمتها من قبل، فقد سئم الفريقان طول الحرب وتكبدا خسائر فادحة دون أن ينال أحدهما انتصاراً حاسماً. تدخل البابا بول الثالث والملكة إلينور زوجة فرنسوا الأول لوقف العمليات الحربية بعقد هدنة بينهما، فعقدت معاهدة نيس Nice في 18 حزيران 1538 مدتها عشر سنوات واحتفظ كلاهما بالأرض التي احتلها، وبذلك احتفظ فرنسوا الأول بالسيطرة على سافوي وثلث اراضي بيدمونت. والتقى شارل الخامس مع فرنسوا الأول في 15 تموز 1538 في مدينة ايكي مورتي جنوب فرنسا وقد اظهرا مشاعر الاحترام الشديد لبعضهما البعض، وللتقريب بين الأسرتين الملكيتين عقدت معاهدة توليد Tole'de التي تضمنت زواج بعض افراد الأسرتين. وهكذا دفع شارل الخامس ثمناً باهضاً من اجل السلام مع فرنسا ولكنه كان سلاماً يستحق ذلك الثمن لأن الخطر اللوثري والتركي ازدادت حدته أكثر من السابق (46).

خامساً: الحرب الثالثة ضد فرنسا ومعاهدة كرسبي 1544 Crespy

انشغل شارل الخامس بعدد من المشاكل الداخلية والخارجية مثل مجابهة البروتستانت في بلاده، ومحاربة القائد خير الدين بربروسا الذي كان يحكم الجزائر وتونس بأسم السلطان سليمان القانوني لأنه كان يهاجم السفن الأوربية في البحر المتوسط والسواحل الأوربية في إسبانيا وايطاليا على الساحل عند نابولي وغيرها، وأصبحت قوته البحرية خطراً يهدد السفن ويعوق المواصلات البحرية للإمبراطورية الإسبانية، لذلك أعد شارل الخامس

حملة بحرية كبيرة لمهاجمة الجزائر في تشرين الأول 1541 ، ولكن عاصفة شديدة هبت على أسطوله الإسباني فهزمت قواته وعادت فلول قليلة إلى إسبانيا. وفي 11 تشرين الأول 1541 قرر شارل الخامس اعطاء ميلانو لابنه فيليب مما أثار فرنسوا الأول فأنتهز الفرصة لنقض المعاهدة مع شارل الخامس واعلن عليه الحرب عام 1542 وهي الحرب الأخيرة بينهما، وكان فرنسوا الأول متحالفاً مع السلطان سليمان القانوني مما أضعف موقفه وجعل شعوب الإمبراطورية تؤيد شارل الخامس ضده. كما حصل الإمبراطور على مساعدة هنري الثامن ملك انكلترا حيث اتفقا على القيام بحملة مشتركة لغزو فرنسا، إلا أن هنري الثامن انفرد بهذه المحاولة ولكنه اضاع الوقت في محاصرة بولون Boulogne شمالي فرنسا بدلاً من التقدم نحو باريس على حين تقدم شارل الخامس نو باريس (47).

أنتصر الفرنسيون على الجيش الإمبراطوري في موقعة سيريزول Cerisoles في 14 آذار 1544 في بيدمونت شمال ايطاليا، ولكن هذا الانتصار لم يحقق أمل فرنسا في الاستيلاء على ميلانو . رد شارل الخامس بهجوم خاطف على الأراضي الفرنسية واقتربت قواته من باريس وتحرك هنري الثامن واستولت قواته على بولون وحاصرت مدينة مونتري ولكنهما لم يتمكنا من الزحف على باريس حيث آثر ملك فرنسا التفاوض فنهاء الحرب. ونظراً لعدم ثقة شارل الخامس في نيات هنري الثامن، ولإنشغاله بما يجري في ألمانيا مما كان يستدعي وجوده هناك قرر الصلح مع فرنسوا الأول. ولما كان الأخير لم يحقق نجاحاً في ميادين القتال فقد وافق على عرض الإمبراطور، وعلى اية حال كان من الواضح بالنسبة لكلا الطرفين أن لاشيء حاسم من المحتمل أن يحدث وكان شارل الخامس متلهفاً للسلام لكي يحرر نفسه من أجل الدخول في الصراع المحتوم مع اللوثريين في ألمانيا. وعلى هذا الأساس وقع الطرفان معاهدة كرسبي في وسط شمال فرنسا في 18 أيلول 1544 وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر أن يتنازل فرنسوا الأول عن أي حق يدّعيه في نابولي، وتترك قواته بيدمونت وسافوي، وأن يتنازل شارل الخامس عن كل ادعاءاته في بور غندي ، كما تقرر حل مشكلة ميلانو بتدبير زواج سياسي للأبن الاصغر لملك فرنسا وهو الدوق اورليان فكان عليه يختار عروسه أما ماري الهنغارية فأنه سيحصل كمهر لها على الأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا) وفرانش كونتي في شرق فرنسا، أو يتزوج من أبنة فرديناند شقيق شارل الخامس فأنه يحصل على ميلانو كمهر لها، ولكن ذلك لم يتحقق بسبب وفاة الدوق اورليان عام 1545 (48).

سادساً: الصراع ضد اللوثريين وحرب شمالكاليك Schmalhaldic عام 1546

عصبة شمالكاليك هي تحالف دفاعي للأمراء اللوثريين (البروتستانت) داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، تأسس في 27 شباط 1531 في مدينة شمالكالدين في مقاطعة تونجيا Thuringia في وسط ألمانيا، وهدف هؤلاء الأمراء الانفصال عن الإمبراطورية (الكاثوليكية) . أن اتفاق سلام كرسبي جاء في الوقت الملائم لشارل الخامس لأن خطر اللوثرية ازداد بشكل كبير بسبب دعم الفرنسيون والأتراك، ولهذا أرسل شارل الخامس مبعوث إلى القسطنطينية عام 1545 بهدف منع جهود اللوثريين الهادفة إلى الحصول على مساعدة من الباب العالي. وأن مارتن لوثر شخصياً أثار اشمئزازاً خاصاً في نفوس الإسبان الذين ينظرون إلى حياة التأمل والعبادة نظرة مقدسة، ولذلك فأن شارل الخامس حصل على الدعم الكامل من إسبانيا عندما أتجه نحو قمع اللوثرية وقد تعهد بأن يحافظ على الوضع الديني الراهن حتى يحين الوقت لعقد مجلس ديني عام في ألمانيا. وفي 13 كانون الأول 1543 وجه البابا بول الثالث دعوة لعقد مجمع ديني في ترنت Trent في ألمانيا للنظر في سبيل الاصلاح الكاثوليكي، ورغم ذلك رفض اللوثريون الحضور للمجمع والاعتراف به بسبب انعقاد المجمع في مدينة ترنت القريبة من حدود ايطاليا وهذا بالتأكيد يجعله تحت سيطرة عدد كبير من الاساقفة واللاهوتيين الايطاليين والاسبان الكاثوليك. أن رفض اللوثريين الحضور في مجمع ترنت حرر شارل الخامس من جميع التزاماته معه فأندلعت الحرب بين الجيش الإمبراطوري وعصبة شمالكاليك في آب 1546 ، لأن مارتن لوثر الذي اعتقد بأن من الخطأ شن حرب على الإمبراطور توفي في 18 شباط 1546 (49).

بلغت قوات شارل الخامس 40000 رجل تحت قيادة الدوق البا Alva، وقد بلغ الجيش اللوثري 60000 رجل تقريباً. وبنصيحة من الدوق البا تجنب شارل الخامس الدخول في معركة قوية وأرتكب اللوثريون خطأ جسيماً عندما امتنعوا عن الهجوم في وقت كان عددهم تقريباً أكثر بنسبة 50% من عدد قوات شارل الخامس، وفشل اللوثريون بمحاولتهم قطع التعزيزات الإمبراطورية عن الأراضي المنخفضة لأن كونت منطقة بورن Buren انضم بقواته إلى جانب الجيش الإمبراطوري. فأصبح اللوثريون أقل حماساً للبدء بالهجوم وقد تفرقت قواتهم بسبب عدم الدفع المالي لها، وفي ربيع عام 1547 جهز ناخب مقاطعة سكسونيا جيشاً للدفاع عن اللوثرية. وقد عبر شارل الخامس مقاطعة سكسونيا ومعه 25000 رجل وتمكن من الانتصار على الأمراء البروتستانت في معركة ميلبرك Muhlberg في 24 نيسان 1547، وبهذا النصر برهن شارل الخامس مجدداً على ذروة قوته وأصدر قراراً مؤقتاً على شكل وثيقة كاثوليكية المبدأ فيها بعض التنازلات اللوثريين(50).

سابعاً: تجدد الحرب مع فرنسا وتنازل الإمبراطور شارل الخامس عن العرش ووفاته عام 1558

بعد وفاة فرنسوا الأول عام 1547 تولى ولي عهده هنري الثاني (1547- 1559) عرش فرنسا، وكان هنري متزوجاً من كاترين إحدى أميرات أسرة دي مدتشي التي تحكم فلورنسا. واجه هنري الثاني مشكلتين هما الصراع القائم بين فرنسا وشارل الخامس والاطماع الانكليزية في الشمال وأستيلاء هنري الثامن على ثغر بولون في اواخر عهد فرنسوا الأول، واصبح شارل الخامس في مركز القوة بعد انتصاره على الأمراء الالمان البروتستانت في معركة ميلبرك، وقد رفض هنري الثاني التعاون مع الإمبراطور في مجمع ترنت الكنسي لتسوية الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت، ولما كان توحيد ألمانيا تحت زعامة إسبانيا يشكل تهديداً لمركز فرنسا فقد عمل هنري الثاني على عدم قيام وحدة سياسية في ألمانيا حفاظاً على التوازن الدولي في القارة الأوربية، ومن ثم سعى لمقاومة شارل الخامس عن طريق إثارة الأمراء البروتستانت والاتصال بهم سراً وقدم لهم المعونات المالية رغم تعصبه للكاثوليكية وعقد معهم معاهدة فرايدولد Friedwald في مقاطعة هس في 14 شباط 1552 التي وقعها اسقف بايوت نيابة عن ملك فرنسا وموريس ناخب سكسونيا عن الأمراء الألمان.

تعهدت فرنسا في هذه المعاهدة بتقديم نفقات الحرب للألمان البروتستانت ضد شارل الخامس مقابل موافقتهم على استيلاء فرنسا على تول ومتز وفردان وهي مدن على الحدود يتكلم معظم سكانها اللغة الفرنسية، ولما كانت انكلترا قد نبذت المذهب الكاثوليكي واعتنقت المذهب البروتستانتي بينما ظلت اسكتلندا على ولائها للمذهب الكاثوليكي، وبعد فشل إتمام زواج ملكي يرتبط بين التاجين الانكليزي والاسكتلندي قامت انكلترا بحملة عسكرية هزمت بها اسكتلندا في موقعة بينكي Pinkie في 10 كانون الأول 1547 وتطلعت اسكتلندا لمساعدة فرنسا نظراً لروابط عائلية وثيقة بين الأسرتين عقدت الملكة الوالدة في اسكتلندا عام 1548 خطبة ابنتها وكانت تبلغ الثامنة من عمرها على ولي عهد فرنسا وبعثت بها إليه للتقارب بين البلدين(51).

اندلعت الحرب بين انكلترا وفرنسا التي حاولت استرداد ثغر بولون، وبعد الانتصار البحري الفرنسي على الانكليز عقد الصلح بين الطرفين في اذار 1550، وبموجبه استردت فرنسا بولون مقابل دفع 400000 قطعة ذهبية. كما تقرر تبادل العلاقات الودية بين فرنسا وانكلترا، وبذلك أمن هنري الثاني على بلاده من هذه الناحية كتمهيد يسمح له بمواصلة الصراع ضد شارل الخامس. وفي شباط 1552 اعلن هنري الثاني الحرب على شارل الخامس، فهاجمت القوات الفرنسية بقيادة فرنسوادي لورين دوق كيز الحدود الألمانية واستولت على فردان وتول ومتز واشتركت جيوش الأمراء الألمان البروتستانت معه في الحرب ضد شارل الخامس. حيث هاجم ناخب سكسونيا القوات الإمبراطورية في البترول، فأضطر شارل الخامس إلى شن حملة مضادة لانتزاع متز وهي اقوى حصون الحدود في اللورين فحاصرها بقوات من ألمانيا وإسبانيا، ولكن المقاومة الفرنسية التي استمرت ثلاثة أشهر أفشلت مهمة شارل الخامس مما أضطره إلى التخلي عن حصار المدينة، بل أنه خشي أن يقع أسيراً في يد الفرنسيين فعبر جبال الالب عبر ممر بريز محمولاً على محفة ووصل إلى شمال ايطاليا (52) .

واجه شارل الخامس خلال تلك الفترة عدة مشاكل وهي: تمرد سكان الأراضي المنخفضة والثورة الدينية ثم الصراع الأسري بين الفالوا في إيطاليا، والخطر العثماني الذي كان يهدد الإمبراطورية من جهة الشرق. وقد قام فرديناند شقيق شارل الخامس بمساع جيدة بين الأمراء الألمان وشارل الخامس تكللت بالنجاح بعقد معاهدة باساو Passau في آب 1552 التي منحت الأمراء الألمان استقلالاً سياسياً ودينياً. التف الالمان حول الإمبراطور لأسترداد متز وتول وفردان، ولكن شارل الخامس ركز على متز بأعتبارها أهم المدن الثلاث. ورغم وصول نجدات عسكرية المانية وإسبانية وغيرهما من انحاء الإمبراطورية بلغت 100000 ألف مقاتل وقيامه بنفسه بمحاصرة المدينة، إلا أن القوات الفرنسية بقيادة الدوق فرنسوادي لورين والامدادات الفرنسية اطاحت بآمال شارل الخامس فلم يتمكن من الاستيلاء على متز بعد أن فقد نصف قواته (53).

استمرت الحرب بين فرنسا وشارل الخامس في سنتي 1553 و 1554 ، وفي 5 شباط 1556 وقعت هدنة فوسيل Vaucelles لمدة خمس سنوات وبموجبها وافق شارل الخامس على أن يترك في يد فرنسا جميع فتوحاتها من متز إلى كورسيكا. وبعد عجز شارل الخامس عن إزالة الوجود الفرنسي وإخفاقه في استرداد متز، وانغماسه في الحروب الكثيرة في إيطاليا ومع الدولة العثمانية، وحدوث تصدع مذهبي في الكنيسة الكاثوليكية، واخفاقه في التوفيق بين المذهبين البروتستاني والكاثوليكي وتدهور صحته، قرر بعد تفكير عميق التنازل عن بعض املاكه لاخيه فرديناند وتشمل ألمانيا والنمسا وتنازل له عن تاج الإمبراطورية واعطاه لقب ملك الرومان وهو لقب يتيح له الفوز عندما تجري عملية انتخاب الإمبراطور. كما قرر شارل الخامس أن يتنازل لأبنه فيليب عن إسبانيا وما يتبعها من مستعمرات في العالم الجديد، وأملاك ايطاليا مضافاً إليها الأراضي المنخفضة، وكان فيليب قد تزوج من ماري ثيودور ملكة انكلترا (1553-1558) وهو زواج سياسي أراد به شارل الخامس أن يضمن وقوف انكلترا في صف إسبانيا (54).

وبعد عقد الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت في مدينة اوغسبورك في 16 أيلول 1555 برئاسة فرديناند أعلن شارل الخامس التنازل عن الحكم في 25 تشرين الأول 1555 في بروكسل وهو المكان نفسه الذي القيت فيه عليه مقاليد الحكم ملكاً على إسبانيا، وفي 16 كانون الثاني 1556 تنازل عن حكم الأراضي المنخفضة ثم تخلى عن تيجان قشتالة وارغون ولم يبقَ له سوى لقب الإمبراطور الذي احتفظ به . وقضى شارل الخامس باقي حياته معتكفاً في دير ايرونيميتي Hieronymite في بلدة يوستي Yuste غرب إسبانيا، توفي في 21 أيلول 1558 (55).

أصبح فيليب الثاني ملك إسبانيا والأراضي المنخفضة ونابولي وميلانو في شبه الجزيرة الايطالية ومستعمرات إسبانيا في جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. وكان البا الرابع الذي انتخب عام 1555 ذا نزعة وطنية جارفة اراد أن يطهر إيطاليا من كل سيطرة أجنبية، وكان عدواً للأسبان بعد أن عقد شارل الخامس الصلح مع البروتستانت اعداء الكاثوليكية حتى أنه هدد بإصدار قرار الحرمان ضده وبعزله من الحكم، واتهمه بالعمل على التمكين للمذهب البروتستاني حتى يقضي شارل الخامس على البابوية ويجعل من نفسه سيداً على روما وبالتالي على شبه الجزيرة الايطالية كلها والعالم اجمع، ولذلك كان البابا يكن الحقد والبغضاء لأسرة الهابسبورغ ويسخط على الإمبراطور فرديناند الذي وافق في معاهدة اوغسبورغ على منح الحرية الدينية لأتباع لوثر. لذلك أستعان البابا بالملك هنري الثاني لمحاربة الاسبان فأستجاب له فأرسل الملك قواته بقيادة الدوق دي كيز إلى ايطاليا في أيلول 1556 ، ولكن الإسبان بقيادة القائد البا تحركوا من نابولي إلى روما وهزموا القوات التابعة للبابا، وعجزت القوات الفرنسية عن اقتحام حصون نابولي فأضطر الدوق دي كيز للعودة إلى فرنسا. وتخلى البابا عن تحالفه مع فرنسا ووافق على وقف القتال وإبرام الصلح وشروطه هي:

1- موافقة البابا بول الرابع على وضع ايطاليا تحت الحماية الإسبانية.
2- انهاء التحالف بين البابا وفرنسا.
3- موافقة البابا على استقبال فيليب الثاني ملك إسبانيا كأبن بار مطيع من أبناء الكنيسة (56).

عاد الملك هنري الثاني إلى القتال ضد إسبانيا وذلك في اواخر كانون الثاني 1557، وإزاء ذلك زار فيليب الثاني انكلترا لكي يستميل ملكتها وزوجته ماري ثيودور إلى الوقوف بجانبه في الحرب فأستجابت الملك لرغبة زوجها واعلنت الحرب على فرنسا في حزيران 1557 . تولى قيادة الجيوش الاسبانية القائد الإيطالي عمانويل فيليبر دوق سافوي الذي فرض الحصار حول مدينة سان كانتان شمالي فرنسا التي قاد حاميتها القائد كاسبار دي كوليني ويساعده الكونستابل مونتمورنسي، دارت معركة طاحنة بين الطرفين في 10 آب 1557، وانتصر دوق سافوي على الجيش الفرنسي وأصيب مونتمورنسي إصابات بليغة ووقع اسيراً وكذلك العديد من النبلاء الفرنسيين، ورغم مقاومة الحامية الفرنسية إلا أن المدينة سقطت في أيدي الإسبان في 27 آب 1557 ، وكان طول آمد المقاومة سبباً في انقاذ فرنسا حيث أن الارهاق الذي اصاب القوات الإسبانية قلل من امكانية استمرارها في الزحف صوب باريس. ورغم انضمام فيليب الثاني إلى جيشه المنتصر إلا أنه لم يدخل باريس لأنه لم يستغل الفرصة ويزحف عليها مباشرة وانشغل بإحكام الحصار على مدينة سان كانتان والهجوم عليها؛ وبذلك اضاع وقتاً ثميناً وأصبح لدى فرنسا متسعاً من الوقت لإعادة تنظيم قواتها العسكرية واصبح من الممكن وقف الغزو العسكري الإسباني بقيادة فرنسوا دي كيز ومعه القوات التي كانت في إيطاليا (57).

تحسن موقف فرنسا بعد أن انتشر التذمر بين الجنود المرتزقة في الجيش الإسباني بسبب تأخر صرف رواتبهم وقلة المؤن حتى أن الكثير منهم انضموا إلى صفوف الفرنسيين، كما أبدت بعض الكتاب الانكليزية التي كانت تحارب مع الجيش الإسباني رغبتها في العودة إلى انكلترا، هذا فضلاً عن قيام فيليب الثاني بتسريح جزء كبير من جيشه قبل أن يتوجه إلى بروكسل. عادت القوات الفرنسية إلى القتال واستردت ثغر كاليه من الانكليز بعد أن ظل في ايديهم مدة قرنين وكان ذلك تعويضاً لهم عن هزيمتهم؛ وبذلك فقدت انكلترا آخر املاكها في فرنسا. وفي تشرين الثاني 1558 توفيت ماري ثيودور وتولت الملكة اليزابيث الأولى (1558-1603) عرش انكلترا فلم يجد فيليب أن هناك ضرورة لإرجاع كاليه إلى انكلترا، وقد ادركت اليزابيث أن إسبانيا ليست متحمسة لمساعدة انكلترا من اجل أسترجاع كاليه من الفرنسيين (58).

ثامناً: معاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambersis

أصبحت الحاجة ماسة إلى عقد الصلح بين فرنسا وإسبانيا بعد أن أنهكت الحروب الإيطالية قواهما وحطمت اقتصادهما وأفنت عدداً كبيراً من قواتهما. وكان النصر يتأرجح أثناءها بينهما دون ان يحصل أحدهما على نصر حاسم رغم نجاح الإسبان في كسب عدة مواقع في الأيام الأخيرة، وكان على فرنسا انهاء نزاعها مع الهابسبورغ في إيطاليا لتتفرغ للمشكلة الدينية داخل فرنسا بعد أن اخذت الحركة البروتستانتية تتسع ويشتد خطرها. وهكذا تهيأت الظروف الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية لإنهاء النزاع وإبرام الصلح. وتهيأت الفرصة في تشرين الأول 1558 لإجراء بعض الاتصالات وإجراء المفاوضات للوصول إلى حل ينهي تلك الحروب، واخيراً عقدت معاهدة كاتوكمبرسيس في 3 أذار 1559 وهي بلدة تقع بالقرب من الحدود الفرنسية البلجيكية (59)، واتفق الطرفان على مايلي:

1- تنازل فرنسا لإسبانيا عن ادعاءاتها في ميلانوونابولي وعن دوقية سافوي التي كانت تجمع سافوي وبيدمونت (مملكة سردينيا فيما بعد)، وأن تحتفظ بمدينتي تورين وكازال في سهل لمبارديا بصفة مؤقتة حتى تنفيذ شروط المعاهدة. وكان التنازل عن سافوي وبيدمونت خسارة كبيرة لفرنسا ونصراً لإسبانيا، وقد نصت المعاهدة على ان يتزوج دوق سافوي عمانويل فيليبر من مارغريت أخت ملك فرنسا وأن يكون الصداق الذي تقدمه العروس إلى زوجها هو تنازل فرنسا له عن دوقية سافوي، ويعتبر هذا الدوق المؤسس الحقيقي لدولة بيدمونت وحصل لها الاستقلال.

2- احتفاظ فرنسا بالثلاث اسقفيات التي استولى عليها هنري الثاني وهي متز وتول وفردان على أن تظل من الناحية الاسمية تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان لهذا الكسب الفرنسي اثره في المستقبل فقد كانت خطوة مهمة في سبيل استيلاء فرنسا على اللورين فيما بعد واتجاهها نحو الهدف الطبيعي في التوسع نحو

الحدود الشرقية للوصول إلى نهر الراين، وفي عام 1870 انتزع بسمارك الالزاس واللورين من فرنسا وضمهما إلى اتحاد ألمانيا.

3- احتفاظ فرنسا بثغر كاليه لبضع سنين ثم يعاد النظر في وضع هذا الثغر.

وبذلك تأكدت سيادة إسبانيا على شبه الجزيرة الإيطالية وامتداد سلطانها على ميلانو في الشمال ونابولي وصقلية وسردينيا في الجنوب. وقد وطد دعائم هذا الصلح الاتفاق على قران فيليب الثاني بعد وفاة زوجته ماري ثيودور بالأميرة اليزابيث ابنة هنري الثاني ملك فرنسا والتي توفيت بعد فترة وجيزة، ومع أن الغرض من تلك المصاهرة بين إسبانيا وفرنسا كان الحد من العداء بين الطرفين إلا أنها لم تحسن العلاقات بين الدولتين بل استمر العداء بينهما مدى قرن ونصف قرن (60).

تعد معاهدة كاتو كمبرسيس فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية في أوربا، فقد كانت خاتمة حروب طاحنة بين فرنسا وإسبانيا. وعلى حين خفت حدة النزاع الأسري والتنافس على السيطرة على أوربا بين أسرة الفالوا وأسرة الهابسبورغ فقد بدأ الصراع الديني في الظهور ليحتل حينئذ مكانة أساسية في العلاقات الدبلوماسية بين دول أوربا في القرن السابع عشر.

الاستنتاجات

أن عهد الإمبراطور شارل الخامس شهد تطوراً مهماً في فنون الحرب والسلاح والخطط الحربية مما أدى إلى ظهور مصطلح (الثورة في مجال العسكرية) نتيجة للنمو المتزايد في حجم الجيوش والأسلحة والتوسع في بناء التحصينات. وكانت إسبانيا تشكل المصدر الأكبر لثروة شارل الخامس التي عن طريقها تتدفق كنوز العالم الجديد التي بدأت تصل إليها منذ عشرينيات القرن السادس عشر. كما اعتمد على إيرادات الأراضي المنخفضة فأستغل مواردها بلا رحمة حتى لم يعد بأمكانها أن تدفع المزيد، أما ممتلكاته في إيطاليا (نابولي وميلانو) فقد شكلت مورداً مهماً لخزينة التاج.

1- كانت الحروب الإيطالية ميداناً للصراع بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة من اجل التوسع الإقليمي بالأستيلاء على ممتلكات جديدة في شبه الجزيرة الإيطالية ثم السيطرة والتفوق في القارة الأوربية.

2- رغم أن فرنسا خسرت هذه الحروب ولم تجن مكاسب إقليمية في إيطاليا بعكس إسبانيا فإنها ظفرت بمكاسب إقليمية في الشمال الشرقي لفرنسا وهي اسقفيات متز وتول وفردان ومدينة كانبري، وبذلك وضعت أقدامها في الالزاس واللورين وصار الاحتفاظ بهذه المنطقة مبدأ قومياً يحرص عليه حكام فرنسا منذ ذلك الحين وحتى الوقت الحاضر. كما عوضوا خسارتهم في هذه الحروب بأستيلائهم على ثغر كاليه الذي أنتزعوه من الانكليز.

3- أوضحت هذه الحروب أن المصالح السياسية كانت تطغى على الاعتبارات الدينية، ففي أثناء تدمير مدينة روما تمت مهاجمة رجال الدين وأسر البابا وقتل القسس والرهبان وتحويل كنيسة القديس بطرس وغيرها إلى اسطبلات للخيول. كما كان فرنسوا الأول يتحالف مع العثمانيين ضد الإمبراطور رغم إعلانه عند خوضه معركة انتخاب إمبراطور الإمبراطورية المقدسة عام 1519 بأنه سيكون في استانبول في غضون ثلاث سنوات، كما قابلت جمهورية البندقية نبأ انتزاع السلطان سليمان القانوني جزيرة رودس عام 1522 بالأبتهاج ووقفت موقفاً سلبياً من هذه الهزيمة التي تعد هزيمة للمسيحية.

4- كما وضحت الحروب الايطالية أن المعارك التي دارت خلالها لم تكن معارك حربية بقدر ما كانت معارك دبلوماسية، ويطلق عليها البعض (الحروب العائلية) إذ سعى من خلالها الطرفان لتكوين تحالفات سياسية واحلاف عسكرية، وتم إرسال مبدأ التوازن الدولي وإيجاد بعض التقاليد مثل الزيجات السياسية بين الأسر الحاكمة كوسيلة للتقارب ونبذ الخلاف. كما ادت نساء هذه الأسر الحاكمة دوراً مؤثراً في ذلك الصراع وفي شخصية هؤلاء الحكام. وتسبب عدم حسم الصراع في بعض المراحل في العمل على عقد التحالفات الدولية أو عقد الهدنة بين أطراف النزاع. وتميزت هذه الحروب باللدود في الخصومة بين شارل الخامس وفرنسوا الأول

وتحول الأمر إلى خصومة شخصية بينهما حتى أن الإمبراطور طالب بمبارزة الملك فرنسوا الأول تبعاً لتقاليد العصور الوسطى بحيث تنتهي بقتل أحدهما، ولكن الملك كان يتهرب من المبارزة.

الهوامش

(1) عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مصر، دار الفكر العربي، 1999.

(2) شارل الخامس (1500-1558): ولد في 24 شباط 1500 في مدينة غينت شمال غرب بلجيكا، وهو الأبن الأكبر لفيليب الجميل من زوجته خوانا القشتالية (المعتوهة). تولى حاكم إسبانيا ما بين (1518-1556) بأسم شارل الأول، وتولى بعد وفاة جده ماكسميليان الأول عام 1519 عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأسم شارل الخامس حتى عام 1558 . وفي عام 1526 تزوج من الأميرة ايزابيلا البرتغالية وانجبت له خمسة اطفال، توفي عام 1558. للمزيد من التفاصيل، انظر: فاتن محيي محسن، الإمبراطور شارل الخامس والحياة الاقتصادية في إسبانيا (1500-1558)، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2014.

(3) R.B.Merriman, The Rise of the Spanish Empire, vol.III, New York, 1962, P.208.

(4) Wim Blockmans and Nicolette Mout, The World of Emperor Charles V, Amsterdam, 2004, P.69.

(5) James. D. Tracy, Emperor Charles V Impresario of War, Cambridge, 2002, P.314.

(6) Merriman, Op. Cit., PP.212-213.

(7) Ibid., P.214.

(8) Nicolette Mout, Op. Cit., P.69.

(*) الدوقية: عملة إسبانية تساوي بالباوند الاسترليني 9 شلنات.

(9) John Lynch, Spain Under the Habsburgs, vol.2, 2nd ed., Oxford, 1981, P.85.

(10) Ramon Carande, Carlos V Y Sus Banqueros, Vol.II, Barcelona, 2000, P.81.

(11) R.Trevor Davis, The Golden Century of Spain (1501-1621), 5th ed., London, 1961, P.141.

(12) ماري الهنغارية (1505-1558) : ولدت عام 1505 ، وهي أخت الإمبراطور شارل الخامس. وفي عام 1515 تزوجت لويس الثاني ملك هنغاريا وبعد وفاته عام 1526 ، أصبحت وصية على أخيها فرديناند الأول كملك لهنغاريا. وفي عام 1531 حكمت الأراضي المنخفضة بعد وفاة عمتها مارغريت النمساوية. للمزيد من التفاصيل ، انظر:.Lynch, Op. Cit., P.51

(13) Davis, Op. Cit., P.142.

(14) Martyn Rady, The Emperor Charles V, London, 1988, P.65.

(15) Ibid.

(16) كولدن : عملة هولندية تساوي 907.6 دوقية، أصبحت تسمى الكيلدر Guilder وظل عملة لهولندا حتى حل محله اليورو.

(17) Rady , Op. Cit., PP.66-67.

(18) منطقة تقع شرق فرنسا كانت تابعة لإسبانيا.

(19) Armstrong M.Edward, The Emperor Charles V, Vol.II, London, 1902, P.54.

(20) زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث،ج1، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت، ص99.

(21) سلسلة جبال في أوربا تمتد من النمسا وسلوفينيا شرقاً ، مروراً بإيطاليا وسويسرا والمانيا حتى فرنسا غرباً. اعلى قمة في سلسلة الألب هي قمة مونت بلاك الواقع على الحدود الفرنسية – الإيطالية.

(22) زينب عصمت راشد، المصدر السابق، ص 100.

(23) نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوربية، دمشق، دار الفكر، 1968، ص29.

(24) M.Edward, Op. Cit., P.25.

(25) B.Chudoba, Spain and the Empire 1519-1653, Chicago, 1952, P.22.

(26) D. Tracy, Op. Cit., P.50.

(27) Charles Chapman, A History of Spain, New York, 1958, P.64.
(28) Ibid., P.66.
(29) Lynch, Op. Cit., P.21.
(30) Christopher Hare, A Great Emperor Charles V (1519-1558), London, 1917, P.30.
(31) Fernand Braudel, The Emperor Charles V, Oxford, 1970, P.122.
(32) Hare, Op. Cit., P.98.
(33) Davis, Op. Cit., P.161.
(34) Nicolette Mout, Op. Cit., P.132.
(35) Abate Balestrieri, Carlo V, Madrid, 1901, P.105.
(36) Braudel, Op. Cit., P.141.
(37) Balestrieri, Op. Cit., P.115.
(38) نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص 62.
(*) ينبع نهر بيداسو من شمال إسبانيا ويصب في جنوب فرنسا.
(39) Braudel, Op. Cit., P.142.
(40) A.Rodriguez, El Emperador Carlos V 1500-1558, Vol.I, Madrid, 1905, P.90.
(41) Davis, Op. Cit., P.170.
(42) Hare, Op. Cit., P.105.
(43) Ibid, P.106.
(44) Davis, Op. Cit., P.172.
(45) للمزيد من التفاصيل عن الاحتلال العثماني للمجر، ينظر: صدام خليفة العبيدي، الصراع بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة على المجر 1520-1566، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، 2012.
(46) Chudoba, Op. Cit., P.107.
(47) William Maxwell, Life of the Emperor Charles V, London, 1853, P.44.
(48) Lynch, Op. Cit., P.81.
(49) D. Tracy, Op. Cit., P.322.
(50) Lynch, Op. Cit., P.84.
(51) William Prescott, The Emperor Charles the Fifth, vol.1, Philadelphia, 1871, P.96.
(52) Davis, Op. Cit., P.180.
(53) Ibid., P.181.
(54) Prescott, Op. Cit., P.99.
(55) فاتن محيي محسن، المصدر السابق، ص ص 60-61.
(56) Lynch, Op. Cit., P.84.
(57) Ibid., P.85.
(58) Rhea Smith, Spain A Modern History, Torouto, 1965, P.77.
(59) زينب عصمت راشد، المصدر السابق، ص ص 105-106.
(60) Davis, Op. Cit., P.185.